الجانب التربوي
في فلسفة إخوان الصفا

د. سعيد شريفي
أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة الجزائر

المدخل:

إنّ الحديث عن التربية عامة، أو فلسفة التربية خاصة لدى كل مفكر أو فيلسوف لا يكون ذا مدلول دقيق إن لم يكن مسبوقا بتحديد مفهوم التربية من جهة، وأهدافها من جهة ثانية، وعلى ضوء هذا التحديد يتم وضع الإطار العام لفكر هذا الفيلسوف أو ذاك، سواء كان هذا الفكر متعلقا بالسياسة أو بالاقتصاد أو بالتربية، رغم العلاقة الجدلية التي تربط هذه الأنماط الفكرية الثلاثة التي تبدو مختلفة في المظهر، ومتناسقة في الجوهر، لأن فيلسوف التربية حين ينظّر لتربية الأجيال إنما يريد أن يساهم في تكوين جيل يمارس السياسة، ويساهم في إنعاش الاقتصاد الذي يعتبر من جهته ممول العملية التربوية والعاكس لما حققته التربية في إطار المنظومة السياسية التي تشرف على المشروع التربوي لمفكر التربية الذي ينطلق من مفهوم التربية وأهدافها، وعلى ضوء هذا يأتي تحديد الوسائل والآليات التي تساهم في تحقيق هذه الأهداف إيجابيا أو سلبيا، وكثيرا ما يتعرض المشروع التربوي للإجهاض إن كان هذا المفهوم وهذا المشروع يسعى في اتجاه معاكس لتوجهات رجل السياسة. ولهذا فإن الحديث عن الفكر التربوي لإخوان الصفا، يكون منطلقه هو تحديد مفهوم التربية وأهدافها لمعرفة مدى تجاوب هذه الأهداف مع فكر إخوان الصفا في مجال التربية الحديثة.

مفهوم التربية:

التربية لغة تعني الزيادة والنمو، فالقول: " ربيت فلانا أي حفظته، ورعيته ونميته "[1]. وفي المعجم الوسيط: « تربى، ورباه نمى قواه الجسمية والعقلية والخلقية"[2]. أما الدكتور جميل صليبا فقد عرّف التربية بأنها " إعداد الفرد للحياة علميا جسميا عقليا خلقيا، واجتماعيا "[3]. أما المفهوم السوسيولوجي للتربية فيشير إلى " كل العمليات التي يتم بواسطتها تنمية قدرات الشخص واتجاهاته وأشكال سلوكه وتنمية القيم الإيجابية التي يؤكد عليها المجتمع الذي ينتمي إليه "[4]. وهذا التعريف فيه إشارة واضحة إلى أنّ التربية عملية اجتماعية تتضمن كل أشكال الإعداد الرسمي وغير الرسمي للشخصية، والتي تساهم في نقل التراث المعرفي بين الأجيال، وهي بهذا ضرورة اجتماعية وسياسية اقتضتها حاجة المجتمع من أجل النمو وتجاوز العقبات التي تعترض تقدمه وتجاوزه عقبات التخلف في جميع الميادين ليضمن لنفسه البقاء، لأن البقاء هدف من أهداف الحياة البشرية، فالإنسان مدفوع لأن يحافظ على بقائه، وبقاء الأفراد هو بقاء المجتمع. وبقاء المجتمع هو بقاء للأفراد، ولا مجال لهذا البقاء الفردي أو الاجتماعي إلا بالتربية التي تهيئ الجميع لمواجهة الطبيعة، فردا أو جماعة، وذلك بتمكينه من مهنة لكسب رزقه وتزويده بالمعايير الثقافية التي تضمن له البقاء دون الذوبان في الآخر، ومن هنا يبدو أن التربية ذات الأهداف الغامضة التي لا تأخذ بعين الاعتبار طبيعة الإنسان ومطالب المجتمع لا يعتد بها، ولا ينتظر منها أي خير ولا فائدة. ولهذا فإنّ التربية مطالبة بتحديد مجموعة من الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها وهي:

1- الهدف الاقتصادي، المتمثل في كسب العيش عن طريق بذل الجهد العضلي والعقلي لضمان بقائه، فلا بدّ للتربية من تهيئة الفرد وتكوينه وإعداده لمواجهة مشاكل الحياة المعقدة، تحقيقا لإنسانيته وضمانا لكرامته التي منحها الله إياه، بوصفه أشرف المخلوقات، " فالتربية في كل زمان ومكان لا يمكن أن تتجاهل هذا الهدف الكبير،

مهما كانت في البيت أو المدرسة أو في المجتمع لا تهيئ المربي للعمل تكون تربية ناقصة"[5].

2- ولكن هذا الهدف مرتبط بهدف آخر وهو التربية الجسدية التي تساهم الرياضة في تحقيقه، فلا بد من توفير وسائل الوقاية والعلاج والعناية الصحية لينمو الجسد نموا حسنا متكيفا، ولكن تكوين الجسد بدون تكوين خلق سليم، وهنا يأتي دور المدرسة والأسرة والمجتمع ووسائل الإعلام المختلفة. والمنظومة التربوية التي يساهم رجال السياسة في صياغتها. ونجاح رجال السياسة في صياغة المناهج والأهداف يتوقف إلى حد بعيد على فهم المجتمع. وعالم الاجتماع هو المؤهل الأول لمد رجال السياسة بالصورة الواضحة عن المجتمع. فعالم الاجتماع هو المرآة العاكسة لطبيعة المجتمع، إن كان هذا الأخير مدركا بوظيفته العلمية، ويبقى هدف التربية مختلفا من مجتمع إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى، ولهذا كان على القائمين على شؤون التربية تحديد الإطار الثقافي الذي تتحرك فيه المؤسسات التربوية وعلى رأسها المدرسة التي تتأثر بالثقافة، بما فيها من تكامل وتناقض ومشكلات وبما تتصف به من استمرار وتغير، ولهذا كان لا بدّ لرجل التربية أو فيلسوف التربية أن يدرس ثقافة المجتمع دراسة تحليلية معمقة ويعرف التعاليم والقيم والاتجاهات التي تغرسها هذه الثقافة في جميع أبنائها على اختلاف البيئات والمهن ليعرف النقاط التي تلتقي فيها الثقافات والتي تفترق فيها، وفيلسوف التربية يستعين بالفلسفة في مهمة تحليل الثقافة وتقويم قيمها المشتركة[6]. وعلى ضوء هذا التحديد والتحليل يأتي الاختلاف في وجهات نظر مفكري التربية حول المفهوم والهدف، فالتربية في فكر الفلاسفة اليونان تختلف عنها في الفكر الأوروبي المسيحي، وهذه تختلف عن التصور الإسلامي للتربية، فالتربية الإسلامية لا تدعو إلى ذوبان الفرد في المجتمع، ولا تستهدف تنشئة أفراد كآلات، إنها لا تضحي بمصالح الجماعة من أجل الفرد، ولا ترمي إلى ترسيخ النزعة الفردية على حساب المجتمع، إنها تؤكد مسؤولية الفرد وتحفظ حقوقه الاقتصادية وتكفل حريته الكاملة في حدود الشرع وقيم المجتمع. فللمجتمع حقوق على أفراده الذين يترابطون برباط الإخوة والود والتراحم

والتعاون[7] وإخوان الصفا من المفكرين الذين بنوا فلسفتهم السياسية والاجتماعية على مبدأي الأخوة والتعاون، ومن هذه الفلسفة استنبطوا نظريتهم التربوية التي سخروها لخدمة هذه المبادئ التي انطلقوا منها لتحقيق مشروعهم الاجتماعي والسياسي الذي رأوا فيه بديلا للواقع الذي عايشوه وعبروا في رسائلهم المعروفة بـ"رسائل الصفا" عامة وبالرسالة الجامعة على وجه الخصوص، على ضرورة استبداله لتحقيق الكمال الإنساني والسعادة الأبدية. فمن هي هذه الجماعة، وما هي معالم الفترة الزمانية والمكانية التي ترعرعوا فيها؟

إخوان الصفا، جماعة دينية هي أم سياسية؟

ملامح العصر، القرن العاشر الميلادي غني بالأحداث المتناقضة، تعبد وزهد، استئثار وطغيان، نشاط ديني وجهد فلسفي، ضعف مركز الخليفة، وتفعيل الحركة الفكرية التي بعثها المعتزلة، وذلك بعد أن بطش المتوكل برجالها، وقصّ الأشاعرة من جوانح تعاليمها؛ والتقت في دور أمرائه مجالس الطرب والعربدة، بحلقات العلم[8] في مثل هذه الملامح ظهرت هذه الجماعة ذات الطابع الديني السياسي في البصرة، ومن بين أعضائها: زيد بن رفاعة، وأبو سليمان المقدسي، وأبو الحسن الزنجاني وغيرهم[9] والبصرة التي ظهرت فيها هذه الجماعة كانت مدينة علم وفكر نشأ فيها عدد من الحركات السياسية والعلمية والفكرية والروحية، واختيارها لهذه المدينة لم يكن مصادفة، بل كانت لأغراض أمنية وهي بعدها عن عاصمة العباسيين، لأن الحركات غير الموالية للنظام القائم كثيرا ما تنشأ في الحواضر البعيدة عن أعين النظام ليكون لها هامش واسع من الحركة والنشاط. وعندما يشتد عودها تظهر إلى العيان أما الحوافز التي كانت وراء تكوين هذه الجمعية فيلخصها الإخوان في النص الآتي: " إنّ الشريعة قد تدنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية "[10].

إنّ هذا النص يوحي في مظهره بأنها جمعية دينية إصلاحية، تكونت لنصرة الشريعة السمحاء، ولكن عندما نعرف منابع ثقافتها نغير رأينا ونأخذ هذا النص بنوع من التحفظ. فما هي منابع ثقافة هذه الجماعة؟

منابع ثقافة إخوان الصفا:

كانت البصرة مركز الجدل والفتن تجمع الفكر الوثني والهندي والمنوي والزرادتشي والبرهمي والصابئي. هذا الخليط العقائدي والإيديولوجي قد أعطى للإخوان ثقافة غريبة جامعة لأمشاج هذا المركز المتنوع الثقافة، والذي كان مأوى لكل من يريد الكيد للإسلام والفكر الإسلامي ولسلطان الدولة المسلمة لقرب البصرة من شعوبية الفرس، وكان معينا لكثير من الانقلابات أو التخطيط لها، وعندما نتعرف على طبقات الإخوان نجد أن التيار الغنوصي قائما واضحا تمام الوضوح[11]، ودون الغوص في تفاصيل فلسفتهم العامة التي لا تهمنا في هذا المقال، أركز على الجانب التربوي والتعليمي من فلسفتهم.

الفكر التربوي في فلسفة إخوان الصفا:

أشير في البداية إلى أن إخوان الصفا لم يتحدثوا عن التربية بالمفهوم الحديث أو المعاصر، بل تحدثوا عن التعليم والعلوم في رسالتهم الجامعة عرّفوا العلم بأنه " هو المستفاد المكتسب بطريق التعليم والتعلم "[12]. أما تصنيفهم للعلوم فقد بيّنوه في الرسالة السابعة من رسائلهم التعليمية بقولهم: " اعلم يا أخي أن العلوم التي يتعاطاها الناس ثلاثة أجناس: منها الرياضة، ومنها الشرعية، الوضعية، ومنها الفلسفة الحقيقية "[13]. والرياضة عندهم في هذا المقام ليس علم العدد، بل هي علوم الآداب التي وضعت لطالبي المعاش. والمعاش هو الحياة الاقتصادية التي بها يتم حفظ البقاء. أما العلوم الشرعية فقد وضعت لطالبي الآخرة، وعليه يمكن القول إن هدف التربية والتعليم عند الإخوان هو تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية وفي السياق نفسه قالوا " ليس من فريضة في جميع مفروضات الشريعة وأحكام الناموس أوجب ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع لعبد، ولا

أقرب له إلى ربه بعد الإقرار به والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاءوا به وخبروا عنه من طلب العلم وتعليمه "[14] وهذا النص ينسجم مع الحديث النبوي الشريف " **خيركم من تعلم العلم وعلمه** "، وهم يقرّون أن سنوات التربية هي السنوات الأربع الأولى من حياة الإنسان، وأن مسؤولية تربيته وإعداده لمواجهة الحياة في هذه الفترة تقع على عاتق الآباء والأمهات[15]، وهذا لأن هذه المرحلة تعتبر مرحلة حاسمة في تكوين وصقل شخصية الطفل، والمحيط الاجتماعي الذي يترعرع فيه الطفل هو الأسرة وعلم الاجتماع التربوي يؤكد على دور الأسرة في تربية الطفل في هذه المرحلة. وإخوان الصفا أعطوا أهمية كبرى للشباب من سن الخامسة عشرة، وهو سن المراهقة التي تنعكس على حياة الإنسان وسلوكاته المختلفة وركزوا على التعليم دون التربية، والتعليم عندهم لا يراد به مجرد الوسائل التعليمية للتدريس أو نقل المعلومات وإكساب المهارات للمتعلمين فقط، بل إنّ كلمة "التعليم" في استخداماتهم تكاد تكون في الدلالة مساوية للتربية[16]، فما هي التربية عندهم إذن؟

مفهوم التربية:

انطلقوا في فلسفتهم التربوية من نظرتهم إلى نفس الإنسان ورؤاها فشبهوها بصفحة بيضاء لم ينقش عليها أي شيء وأن تتقبل كل ما يعرض عليها فينطبع فيها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. ولهذا فمن الصعب أن ننزع منها ما يلحق بها وينطبع عليها من أثر. ولهذا يجب العناية بتشكيلها حتى تتكون وتتشكل بصورة جميلة وتتخلق بأخلاق راضية لأنه " إذا تشكل أو كتب فيها شيء حقا أم باطلا فقد شغل لمكان ومنع أن يكتب فيه شيء آخر ويصعب حكه ومحوه "[17].

فكأني بهذه النظرية تشبه إلى حد بعيد نظرية جون لوك التجريبية في التربية، والمكان لا يتسع في هذا المقام لاستعراض هذه النظرية ونقدها ومقارنتها بالنظريات الأخرى، صحيح إنّ النفس البشرية تتأثر بما وضع فيها منذ نعومة أظافر الطفل، لكن

تعرض حرية الإنسان للمخاطر. فكم من شخص تربى في أسرة مسيحية ثم اختار الإسلام دينا له والعكس صحيح. وهذا يعود إلى أهم العوامل التي صاحبت الإنسان في مراحل حياته. فالإنسان يولد له قابلية ليتعلم ويكتسب أفكار أو مهارات وقيما ومعايير سلوكية، هذه المعايير وهذه المهارات يمكن أن يتخلى عن بعضها بحسب المؤثرات والعوامل الاجتماعية المحيطة به. الله عزّ وجل خلق الإنسان بإمكانيات قبول الأخلاق وتعلم جميع المهارات والعلوم والآداب، ومكّنه بفضل تكوينه الفسيولوجي أن يكتسب جميع الصنائع البشرية والأفعال الإنسانية والأعمال الملكية[18].

وفي السياق نفسه يقول ابن مسكاويه: " إنّ التربية الدينية والأخلاقية هي تمهيد ضروري ينبغي أن يسبق المبادئ الفلسفية لأن الشريعة هي التي تقوّمهم وتعودهم وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ إلى السعادة الإنسية بالفكر الصحيح"[19] وابن خلدون نفسه ركز على ضرورة تسبيق التربية القرآنية على التربية الفلسفية، نظرا لما تتركه من آثار في نفس الطفل، لأن النفس قد تكون في حالة الاعتدال عند الفطرة، ولكنها تكتسب ما يجعلها تخرج عن الاعتدال بما تكسبه من المحيط العائلي والاجتماعي، ومن هنا كانت التربية عند إخوان الصفا عملية توجيه وتهذيب وإصلاح ما فسد من خلق الإنسان، وهذا يكون بقهر الإنسان لطبيعته الشهوانية أو الغضبية لتصير على حال الاعتدال[20]، فالإنسان إذن له دور في التربية وتطهير نفسه مما علق بها من مكتسبات المجتمع الذي لا يمكن نكران بصماته في العملية التربوية والتعليمية ولكنهم بالغوا حينما اعتبروا أن الإنسان قادر على تطهير نفسه ليبلغ درجة الكمال التي يصل إليها الحكماء ويظفروا بها. وذلك حين قالوا " لا يمكن لأحد من الناس لا يليق به ولا يشق أن يصعد إلى ملكوت السماء وسعة الأفلاك والدخول في زمرة الملائكة إلا بعد عناية شديدة في تهذيب نفسه وصحة اعتقاده ومعلوماته "[21]. وتحقيق الكمال الذي ترغب فيه الجماعة يكون بالتعاون بين أفراد الجماعة التي يعيش فيها الإنسان يتعلم الأخ العلوم الفلسفية الموجودة عند الإخوان وهي العلوم المذكورة في كتب الفلاسفة التي أقروها،

كما يؤدي التزامه بالجماعة لتجنب الأخلاق المذمومة التي أقرت العقول بأنها كذلك، ثم السير على هدى الأوامر والنواهي التي جاءت بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، والتي جمع الإخوان بينها وبين آراء الفلاسفة، وهذا التعاون هو الذي يضمن للجماعة البقاء. ولهذا تعمل الجماعة على جذب الناشئين ممن يصلحون للانضمام إليهم وتعليمهم العلوم المحققة للأهداف التي يسعون إليها. ولهذا فالتربية عندهم تربية خاصة عمادها مبادئ وآراء وقيم وعلوم تميز الإخوان عن غيرهم، ومجالها الصفوة المنتقاة على اعتبار أنهم القوى المستوعبة لمبادئهم وأفكارهم التي يتوقف عليها استمرار هذه المبادئ وتحويلها إلى واقع على أساس قبول هؤلاء الخاصة من الشباب[22]، ولكن ما هي العوامل المؤثرة لكي تحقق هذا النوع من الكمال الإنساني؟

المؤثرات الخارجية المساعدة على التربية:

يجمع علماء النفس والاجتماع على أن الإنسان كائن ثنائي التركيب: نفس وجسد. وهذا التركيب ينمو حسب الوسط الاجتماعي والطبيعي الذي نشأ فيه. وتصور إخوان الصفا للإنسان لا يخرج عن هذا الإطار. فإذا كانت النظرية التجريبية تزعم أن عقل الإنسان يكون صفحة بيضاء عند الولادة، فإنّ النظرية العقلية ترى عكس ذلك، بحيث يولد وهو مزود ببعض الملكات الفطرية التي تخضع لمؤثرات خارجية تتعلق بالوسط الطبيعي والاجتماعي الذي يشمل الأسرة بالدرجة الأولى وما تغرسه من قيم وسلوكات في الولد الطفل، فإنّ إخوان الصفا ينظرون إلى الإنسان نظرية ثنائية نفس وجسد. فهو خلق لأن يكون رجلا بجسده، أما النفس فقد ولدت بسيطة ساذجة لا تعلم شيئا ولا تحمل أية فكرة، إلا ما تحمله من القدرة على إخراج ما في قوتها من العلوم إلى الفعل، كي يصبح هذا الإنسان عالما مؤمنا ربانيا حكيما فيلسوفا[23]. ولكن هذا الخروج الساذج يستوجب سلامتها من مناحس الفلك شهرا بعد شهر على مدى التسعة أشهر التي يقضيها الجنين في بطن أمه، لأن روحانيات الكواكب تطبع في النفس أخلاقا معينة وهي

الأخلاق المركوزة، في نظرهم: أي الفطرية. وهذا يجعل الإنسان يحمل مجبولا على أخلاق ليس مسؤولا عنها، ولا يستطيع التخلص منها نتيجة تأثير النجوم عليه، وهنا نتساءل عن كيفية التوفيق بين قولهم بطهارة النفس ونقاوتها عند خروجها إلى الدنيا من جهة، وقولهم أن النجوم تؤثر في النفس وتطبع فيها أفكارا غير سوية، وهل تستطيع التربية الأسرية والمدرسية أن تغير النفس وتقلع ما فيها من سوء الأخلاق التي انطبعت فيها بفعل عوامل متعالية لا دخل للإنسان في انطباعها. وعلى كل حال فإنّ بعض العوامل التي تساعد على ترسيخ أخلاق قد لا تكون سوية، قد تصبح طبيعة ثانية وهي:

العادات والتقاليد التي يغرسها المجتمع في نفس الطفل بصفة غير مباشرة، هذه العادات التي يتربى فيها الصبي تصبح مطبوعة في النفس إذا دامت مداومته عليها. وأرسطو قال بأن العادة طبيعة ثانية والطبيعة لا يمكن التخلص منها بسهولة، والعادات الرديئة تقوي الأخلاق الرديئة وتجعلها أكثر رسوخا، والعادات الحسنة تقوي الأخلاق الحسنة وتساعد على ثبوتها واستمرارها[24]، وهذا ما يبرز أهمية التركيز على حسن اختيار الرفاق والأصدقاء، ومخالطة ذوي الأخلاق الفاضلة، والابتعاد عن ذوي الأخلاق الذميمة بضمان حسن النشأة والسيرة الحسنة للطفل الذي يميل منذ الصغر إلى محاكاة الآباء والأمهات والجيران في الحركات والألعاب أثناء الطفولة[25]، والدليل على ذلك أن الكثير من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان تطبعوا بأخلاقهم، وإذا نشأوا مع النساء والمخانيث تطبعوا بأخلاقهم، حتى وإن شذّ البعض عن هذه القاعدة، لأن الإنسان مهما كان طيّعا للمحيط الاجتماعي والعائلي تبقى له القدرة على التحدي: فتأثير المحيط في الطفل لا ينكره إلا جاهل بعلوم التربية ولكن ليس إلى درجة التعميم. فقد ينشأ الطفل في وسط عائلي منحرف وسلوكات غير قويمة، ولكن ليس هذا دليل على أنه ينشأ بالضرورة على جبلة والديه أو مجتمعه، بحيث يمكن أن ينقلب على تربية مجتمعه ويتمرد على محيطه. فالطفل مهما كان سنه فهو يحمل في جبلته بذور

التمرد والعناد، وإخوان الصفا يدخلون العناصر البيولوجية في تكوين شخصية الصبي، هذه العناصر التي استمدوها من فكرة الأفلاك السماوية التي تؤثر في الأمزجة وهي:

العوامل البيولوجية:

ففي رأيهم أن العوامل الطبيعية المستمدة من الأفلاك تؤثر في المزاج الإنساني كما تؤثر في جسمه، وهذه الأمزجة هي الدم والبلغم، والمرّة الصفراء، والمرّة السوداء، ويكون اعتدال الإنسان بتساوي هذه الأخلاط فيما بينها، أما إذا تغير المزاج بين الاعتدال والزيادة إلى النقصان، فإنّ هذا يؤدي إلى تغير في العادات والأخلاق المختلفة في الإنسان، وكذلك فإنّ جسد الإنسان يحتوي على العناصر الأربعة وهي: الماء، النار، الهواء والتراب. فإذا تغلب عنصر من هذه العناصر على تركيب الجسد فإنّ أخلاق الإنسان أو طبيعته تتأثر. نلاحظ أن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الفلسفي واللاهوتي أكثر مما يغلب عليه الطابع الاجتماعي، العوامل الطبيعية تلعب دورا كبيرا في التغير، ولكن التغير بالمفهوم الاجتماعي لا يكون بمعزل عن العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية وهناك عامل آخر في نظر إخوان الصفا، وهو:

العامل الغيبي:

إنّ إخوان الصفا يعزون كل ما يقع في الكون من موجبات النجوم وكأن لكل فلك مهمة يقوم بها على مستوى الأرض، والإنسان مرتبط في كل حركاته وسكناته بمواقع النجوم منذ لحظة وجود الجنين في رحم أمه[26]، وهم بهذا ربطوا كل المؤثرات بسبب غيبي وجعلوه الأصل المؤثر في كل شيء. وهذا السبب من الصعب معرفته من طرف العامة، ما عدا من قبل الراسخين في العلم حسب زعمهم، وبهذا يفسرون ما هو واقعي بما هو غيبي، عكس التفسير العلمي الحديث الذي يربط نمو الطفل بمؤثرات عائلية بيولوجية اجتماعية. ويبقى أن نتساءل عن:

أهداف التربية في فلسفة إخوان الصفا:

إذا كان الفرد يتأثر بالمحيط الاجتماعي في نموه وفكره، فإن الفيلسوف كذلك يتأثر ببعض النظريات الفلسفية في صياغة مفهومه وتصوراته للقضية التي يعالجها، بما في ذلك المجال التربوي. فقبل استعراض مفهوم التربية عند إخوان الصفا يحسن استعراض بعض النظريات التي سبقت إخوان الصفا. فالتربية شغلت بال المفكرين منذ القدم نظرا لما تكتسبها من أهمية من جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فهي اللبنة الأولى في تكوين شخصية الطفل ورجل المستقبل: فأفلاطون مثلا إتخذ من التربية وسيلة لتحقيق المجتمع الفاضل الذي سعى لرسم معالمه في كتاب الجمهورية، والمجتمع الفاضل هو الذي يسعى لصياغة المواطن الفاضل، واتخذ من التربية أساسا لبناء الشخصية الفاضلة. لأن وظيفة التربية في رأيه هي خلق الإنسان الكامل. وسنجد هذا الهدف في فلسفة إخوان الصفا، غير أن مفهوم الكمال قد يختلف من مفكر إلى آخر.

فوظيفة التربية هي العمل على تدريب العقل وتعليمه لإيقاظ الملكة العاقلة لدى الفرد. وخلق المواطن الصالح عن طريق تنمية روح المواطنة[27].

أما أحمد بن مسكويه (320-421) فيرى أن التربية الأخلاقية أمر هام، فالإنسان إذا علم مثلا أن الشهوات الرديئة ليست فضائل، بل هي رذائل تجنبها، وكره أن يوصف بها، وإذا ظنّ أنها فضائل لزمها وصارت له عادة، وهنا تجدر الإشارة إلى مفهوم سقراط للفضيلة التي ربطها بالمعرفة حيث اعتبر الجهل رذيلة، والمعرفة فضيلة، وفي رأيه أن التربية تبدأ عندما تظهر بوادر الحياء على الطفل. والتربية عند ابن مسكويه تستمد مبادئها من التربية الدينية ويتعلم آداب تدبير المنزل وتناول الطعام ومكارم الأخلاق مثل التواضع وآداب الحديث والكلام، واحترام الوالدين والمعلمين. ولكن يوصي المعلم بعدم استخدام القوة والعنف، دون أن يغفل التربية الرياضية والعسكرية وتجنب التساهل والإهمال مع ضرورة أن يكون المعلم القدوة الحسنة أمام التلاميذ [28].

أما إخوان الصفا فقد جعلوا معرفة الله وتوحيده أهم الأهداف في مشروعهم التربوي، لأن العلم بصفات الله ووحدانيته وأوصافه هو آخر مرتبة ينتهي إليها الإنسان. وهو العلم المطلوب من ذوي العقول الراجحة. ومن ثم يؤكدون على أن توحيد الله وتنزيهه عن كل الشوائب هو الغاية القصوى من التربية، وهذه الغاية لا تتحقق إلا بإحاطة الإنسان بالعلوم والمعارف كل حسب طاقته والهدف الثاني من التربية والمكمل للهدف الأول هو معرفة النفس وتهذيبها، لأن معرفة الله لا يصل إليها الإنسان إلا بعد أن يعرف هذا الإنسان نفسه، لأن هذه المعرفة هي التي تقود إلى الإيمان بالبعث وبالآخرة وبالثواب والعقاب، وعندما يتوفى الإنسان العمل الصالح والسلوك الحسن والاعتقاد السليم والصبر على مكاره الحياة أملا في النجاة والخلود في ملكوت السماء [29]. وبلوغ هذه المرتبة هي منتهى الكمال الذي قصده أفلاطون وكذلك أخوان الصفا، وقد اهتموا بإبراز بعض العوائق التي تحول دون تمتين عرى الصداقة والأخوة التي ينشدونها وهي:

1- عدم التمييز بين النفس والجسد.

2- إدراك كيفية رباط النفس مع الجسد.

3- الجهل بالسبب الذي من أجله ربطت النفس بالجسد.

4- عدم تصور كيف تنبعث النفس من الجسد.

ومما سبق يتبين أن معرفة النفس هي الطريق المؤدي إلى معرفة الله، ولكن هذا لا يتحقق بصفة سريعة، بل لابد من أن تهذب النفس أولا ثم تنبه من نوم الغفلة وأن الغاية القصوى للتربية هو الجمع بين الحكمة والشريعة، لأن الحكمة هي الوسيلة لتنقية الشريعة مما لصق بها من الجهالات.

وخلاصة القول أن التربية في فكر إخوان الصفا لا يمكن الإحاطة بها في هذا المقال، ولكن يمكن القول أن العلوم في نظر الإخوان تساعد على معرفة الخالق معرفة تنزيه عن كل شيء ووصوله إلى أن يجد نفسه قد بلغ مرتبة الكمال بعد أن يحصل له معرفة أربعة خصال هي:

قوة النفس بالنهوض من الجسد، والنشاط في طلب الخلاص من الهيولى التي هي جهنم النفس، والرجاء والأمل للفوز والنجاة عند مفارقة النفس للجسد، والرابعة الثقة بالله واليقين بتمام هذا الأمر وكماله، وبهذا تتحقق أهداف التربية عند إخوان الصفا.

الهوامش:

[1]- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع عشر، بيروت، ص.21

[2]- معجم اللغة العربية، المجلد الأول، دار المعارف، القاهرة، 1960، ص.45

[3]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، بيروت، 1971، ص.266

[4]- فادية عمر الجولاني، علم الاجتماع التربوي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993، ص4.

[5]- فاخر عاقل، معالم التربية، دار العلم للملايين، بيروت، 1969، ص.38

[6]- صادق سمعان، الفلسفة والتربية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962، ص.147

[7]- عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأصول الفلسفي للتربية عند مفكري الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1982، ص.628

[8]- كمال يازجي وآخر، إعلام الفلسفة العربية، دار المكشوف، بيروت، 1968، ص399.

[9]- القفطي، أخبار الحكماء، القاهرة، 1326هـ، ص 58، 60، انظر المرجع المذكور أعلاه.

[10]- المرجع نفسه، ص.59

[11]- عبد القادر محمود، الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986، ص .40

[12]- حسام الألوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 210*.

[13]- الرسالة الجامعة، ج 1، ص219، انظر المرجع السابق، ص.219

[14]- رسائل إخوان الصفا، سلسلة تراث العرب، م 3، بيروت، 1983، ص237.

[15]- الرسائل، ج 3، ص268.

[16]- فليب فنكس، فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب النجيحي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965، ص.33

[17]- الرسائل، ج 4، ص.114

[18]- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[19]- أحمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق.

[20]- الرسائل، ج 1، ص.227

[21]- المرجع نفسه، ص.261

[22]- انظر: نادية جمال الدين، فلسفة التربية عند إخوان الصفا، القاهرة، 1983، ص.274

[23]- المصدر السابق، ص.49

[24]- المصدر نفسه، ص.107

[25]- الرسائل، ص.153

[26]- المصدر السابق، ص.356

[27]- فايدة عمر الجولاني، مرجع سابق، ص.112

[28]- عبد الفتاح أحمد فؤاد، مرجع سابق، ص362.

[29]- الرسائل، مصدر سابق، ص413.

قائمة المراجع:

1- ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع عشر، بيروت.

2- أحمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق.

3- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، بيروت، 1971.

4- حسام الألوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.

5- صادق سمعان، الفلسفة والتربية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1962.

6- عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأصول الفلسفي للتربية عند مفكري الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1982.

7- عبد القادر محمود، الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1986.

8- فاخر عاقل، معالم التربية، دار العلم للملايين، بيروت، 1969.

9- فادية عمر الجولاني، علم الاجتماع التربوي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.

10- فليب فنكس، فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب النجيحي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965.

11- القفطي، أخبار الحكماء، القاهرة، 1326هـ.

12- كمال يازجي وآخر، إعلام الفلسفة العربية، دار المكشوف، بيروت، 1968.

13- نادية جمال الدين، فلسفة التربية عند إخوان الصفا، القاهرة، 1983.

14- معجم اللغة العربية، المجلد الأول، دار المعارف، القاهرة، 1960.

15- رسائل إخوان الصفا، ج 1، سلسلة تراث العرب، م 3، بيروت، 1983.